الفصل الثامن

بنية الإبادة الجماعية
الصراع والحرب

ناقشتُ أن الإبادة الجماعية ظاهرة بنيوية من مدلولين، يتمثل الأول في أنها نمط متكرر من الصراع الاجتماعي، أما الثاني فهو أنها وثيقة الصلة ببنى الصراع الأخرى، إضافة إلى بنى ذات طابع أساسي تتصل بالقوة ضمن المجتمع الحديث. يتناول هذا الفصل المدلول الأول، و يطرحُ نموذجًا عن بنية الإبادة الجماعية، إذ يبحث في السمات الأعمق للإبادة الجماعية كالصراع والحرب، ووضع المفاهيم حول الجناة والأهداف، ومعنى تدمير المجموعة، والمفهوم الغائب حول المدني الذي يحدد ما يمتلكه المستهدفون من الإبادة الجماعية كقاسم مشترك. ولكن لا بدَّ من ملاحظة تحذيرية في هذا المقام، فالإبادة الجماعية عند لمكن وما ورد هنا مصطلح لوصف صنف عام من الصراع، ومن هذا المنطلق ينبغي فهم الإبادة الجماعية على أنه مفهوم إطاري لتحليل مجموعة كبيرة منوعة من الحالات التجريبية، فالإبادة الجماعية تشبه الحرباء عندما تندرج تحت المعنى الذي أورده كلوزفيتس في وصفه للحرب، من حيث «تغييرها لأشكالها ومظاهرها بين الحقب التاريخية، والأحداث الواقعة ضمن الحقب»[1]، بناءً على ذلك نكوِّن

مـن خـلال وصفنا لبنية الإبـادة الجماعية نموذجًا عامًا تُظهِـر أبعاده المختلفة تنوعًا كبيرًا.

إنـه أمـر جوهـري أن نبحث الإبـادة الجماعية بوصفهـا صراعًا، مع وجود اعتراض على اسـتخدام هذا المصطلح الاجتماعي العام؛ بسبب فكرة التحيز، لكننـا رأينا أنـه يمكن لبنية علاقات اجتماعية أن تكون غير متناسـقة من حيث النـوع، دون فقدانهـا لخاصيتهـا القائمة على الصراع، ويجـادل ويبر بأنه يمكن لعلاقـة «أن توصـف بأنها صراع بقـدر ما يكون العمل القائم فيهـا موجهًا عمدًا نحـو تنفيـذ رغبـة الفاعـل الخاصـة ضـد مقاومـة الطـرف الآخـر، أو الأطراف الأخرى»[2]، ويتابع ويبر جداله حتى يصل «التمييز بين الصراع السـلمي المتمثل في عدم استخدام العنف الجسدي الفعلي، وبين النوع الدموي من العنف الذي يسـتهدف تدميـر الخصـم مُتجاهـلًا القوانين كلهـا»[3]، ورغم أنه يمكـن للإبادة الجماعيـة أن تمـر بمراحل يحقق فيها الجنـاة أهدافهم المباشـرة دون اللجوء إلـى العنف الجسـدي يكون اسـتخدامها للعنف الدموي أمـرًا جليًّا، وعلاوة على ذلـك ينبغـي علينا أن نلاحظ أن ويبر الذي ظهـرت كتاباته قبل ابتكار مصطلح الإبـادة الجماعيـة؛ يُعرِّف الصراع الدموي انطلاقًا مـن مصطلح التدمير، وهو المصطلح الذي استخدمه لِمكن والاتفاقية ومعظم المُعرفين الأكاديميين فيما بعد للإبادة الجماعية.

الإبادة الجماعية ليست صراعًا بين مجموعات

تحـت أي مسـمًى يمكـن عدّ الإبادة الجماعية شـكلًا من أشـكال الصراع، وما هي مقتضيات سـمتها الدموية التدميرية؟ تُعد الإبادة الجماعية من منظور

عـام شـكلًا متطرفًا مـن العنف القائـم بين مجموعـات اجتماعيـة ومجموعات إثنية، وقد رأينا أن لِمكن عرَّف الإبادة الجماعية بأنها «جريمة ترتكبها جماعة بحـق أخرى»[4]، يُناقش فاكن دادريـان: «تقتضي الإبادة الجماعية مسـبقًا وجود صـراعٍ بيـن مجموعـة قائـمٍ علـى تاريـخ مـن التنامـي والتصعيـد... تمثـل أداة أساسـية فـي معالجة ذاك الصـراع، ومن هذا المنطلق تكـون الإبادة الجماعية أمـرًا وظيفيًّـا»[5]، تذكر باربرا هارف وتيد جر في كتابهما المدرسـي حول النزاع الإثنـي أن «المجموعـات الإثنيـة الناشـطة سياسـيًّا توجد ضمـن دول حديثة»[6]، وأن «ثلاثـة أرباع المجموعات المسـتطلَعة في تسـعينيات القـرن الماضي كانت ناشـطةً سياسـيًّا»[7]، كانا يتعاملان مع المجموعات الإثنية على أنها تمثل فاعلين سياسـيين، لكـن غالبًـا ما يتحـول النـزاع الإثني الذي يُعنـوِن كتابهمـا إلى نزاع إثني-سياسـي داخل النص، ويثير الالتبـاس فيما إذا كانت المجموعات الإثنية هـي نفسـها التـي تمثـل الفاعليـن سياسـيًّا، أو أنهـا توفـر القاعـدة الاجتماعية للفاعلين المنظمين سياسيًّا.

يـرى غور وهـارف Gurr&Harff أن الخصائـص الاجتماعية للمجموعات -الهويـة والتلاحـم والحالـة الاقتصادية- إضافة إلى سـمة الدولـة، ونوع القوة التي تستخدمها وغيرها، هي ما يفسر النزاع بصورة عامة، وأشكاله المتطرفة المرتبطة بالإبادة الجماعية بصورة خاصة. وعلى نحو مماثل صاغ مان مصطلح التطهيـر القاتـل داخـل العلاقات البينيـة للمجموعات[8]، ويرى أن التنافـس على الأرض بين الحـركات القائمة علـى المجموعات الإثنية هو التفسـير الرئيس. يرفض مـان الادعـاء القائـل: إن وجـود مجموعتيـن أو أكثـر مـن المجموعـات الإثنيـة جنبًـا إلى جنب هو ما ولـد الإبادة الجماعية، بل ويقرُّ بأن «النزاع الإثني

الإجرامي يهتم بصورة رئيسة بعلاقات القوة السياسية»[9]، يهتم تفسير مان، رغم ظهوره بصورة سؤال حول العلاقات بين المجموعات بالنزاع السياسي المنظَّم، والحرب بين الحركات المسلحة، إذ تُحشد المجموعات الإثنية ويُشرَّع فعلها، لكنها ليست نفسها الفاعلة.

ثمة إجماع اجتماعي ومرتبط بعلم الإنسان، فحواه أن فكرة النزاع الإثني مضلِلة؛ لأنها «تُظهر أن الانتماء الإثني سبب الصراعات، وأن الصراعات الإثنية غير سياسية، ومتميزة بطريقة أو بأخرى عن حروب نشبت للتحكم في الموارد أو القوى السياسية»[10]، وعلى النقيض من ذلك أظهرت أعمال عديدة أن «الانتماء الإثني هو الصورة الإيديولوجية وليس المادة التي يقوم عليها الصراع»[11]، و«انبثقت أفكار شائعة حول العداوة الإثنية في أثناء النزاعات ولم تحدث نزاعات بسببها»[12].

حتى وإن وُجِدت الأفكار الإثنية فقد تعززت وحظيت بدلالة عملية خلال أحداث العنف الدائرة، وما نحتاج البحث فيه هو ما صاغه جوسلن ألكسندر Jocelyn Alexander و جو آن ماكريغر Jo Ann McGregor و تيرينس رانجر Terense Ranger «لماذا استُبدلت أفكار الهوية المرنة والشاملة والمتوائمة والمتصلة بالإثنية بأفكار حول الأشخاص المتلاحمين والمقتصرين بصورة تبادلية مع تاريخ من الخصومة والاضطهاد والانتقام؟»[13]، يوافق مان على أنه «يجب شرح الحالة التي تصبح فيها المجموعات الإثنية متوافقة في النزاعات»[14]، بيد أن «أممًا بأكملها، أو مجموعات إثنية لا تعمل وفق صورة تشاركية»[15]، ليست الإبادة الجماعية نزاعًا إثنيًّا، وإنما نزاع سياسي

وعسكري يحشد فيه مرتكبو الإبادة الجماعية الانتماء الإثني، وهويات اجتماعية أخرى.

الإبادة الجماعية بوصفها نمطًا من أنماط الحرب

تفضي بنا هذه الخاتمة إلى مرحلة جديدة من النقاش تُربط فيها الإبادة الجماعية من حيث المفهوم بالحرب، على غرار الصراع الدموي الذي يهدف إلى تدمير الخصم، ويغض الطرف عن القوانين كلها؛ لذا يمكننا أن نطرح تعريفًا اجتماعيًّا أكثر دقة يقول: إن الإبادة الجماعية ليست شكلًا من أشكال النزاع الاجتماعي فقط، وإنما شكل من أشكال الحرب أيضًا، سيربط إطار مفاهيمي بين الإبادة الجماعية وأشكال الحرب، ويُضفي الصفة العسكرية على القوة التي تتصل بها بصورة وثيقة (راجع الجدول 8.1).

الحرب من منطلق نموذجي مثالي سجال بين تنظيمات مسلحة، يُمارس فيها كل فاعل مسلح العنفَ ضد الآخر؛ بغرض سحق قوته، إلا أن الحرب لا تشتمل على القوات المسلحة وحسب، بل تحظى دائمًا ببعض الدعم من التجمعات السكانية المدنية، وعادة تشارك بعض الجموع الاجتماعية في الحروب من أن أفرادها ليسوا مقاتلين أصلًا، مما أوصل العنف بالصدفة أو التخطيط إلى التجمعات السكانية أو المجموعات الاجتماعية الداعمة للقوات المسلحة، فيُعد المدنيون والمقاتلون على حد سواء ضحايا، أو أهدافًا؛ لذلك لا يتمثل الاختلاف بين الحرب والإبادة الجماعية بالسمة التدميرية للفعل، أو الشكلية المرتبطة بالعنف، أو الجاني النمطي، أو إيذاء المدنيين. أو حتى الإيذاء المتعمد للمدنيين.

الجدول 8.1 الحرب، الحرب القذرة والإبادة الجماعية: أنواع العلاقات بين الفاعلين المسلحين والمدنيين

	الحرب	الحرب القذرة	الإبادة الجماعية
بوصفها نوعًا من الفعل الاجتماعي	تدمير قوة عدو منظَّم ومسلح	تدمير القوة الاجتماعية المدنية بوصفها وسيلة لهزيمة عدو منظَّم ومسلح	تدمير قوة مجموعة مدنية اجتماعية
بوصفها صراع فاعلين	سجال متبادل بين قوتين منظمتين ومسلحتين	سجال متبادل بين قوتين منظمتين ومسلحتين، إضافة إلى الاستهداف الممنهج للتجمعات السكانية الحاضنة	حملة عنيفة تشنها قوة منظمة ومسلحة ضد مجموعة اجتماعية بحد ذاتها مصحوبة بمقاومة من جانب التجمع السكاني المُهَدّد وفاعلين آخرين
بوصفها صدامًا حاسمًا	صدام مسلح منطوٍ على قتل متبادل بين القوات المسلحة (معركة)	صدام مسلح منطوٍ على قتل متبادل بين القوات المسلحة تصاحبه هجمات على مدنيين عزل	عنف أحادي الجانب ممارس ضد مدنيين عزل وعلى نطاق واسع

obeikan.com

العنف ضد المدنيين	العنف غير المقصود والأذى غير المباشر (الضرر الجانبي) بما في ذلك الفظاعات غير الإستراتيجية	العنف المقصود والمتدرج الهادف إلى هزيمة العدو المسلح: فظاعات تكتيكية إستراتيجية على نحو شامل (مثال: الحرب الشاملة، والحرب الأهلية، والعنف الإرهابي)	العنف المقصود والمتدرج الهادف إلى القضاء على مجموعة مدنية
الشرعية	شرعية بصورة عامة	شرعية محل نزاع: وسيلة غير شرعية تحت عباءة الشرعية العامة للحرب	غير شرعية

المصدر: عُدل هذا الجدول من كتاب شو: الحرب والإبادة الجماعية War and Genocide الصفحة: 45.

تبقى الإبادة الجماعية بتصنيف لِمكن شكلًا متطرفًا من أشكال الحرب الذي ينحرف عن الشكل المثالي النموذجي للحرب.

تقتبس الإبادة الجماعية أربعة عناصر أساسية من الممارسة الاجتماعية للحرب وهي:

1. تحديد مجموعة اجتماعية على أنها عدو من الناحية العسكرية، وليس من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية؛ أي ضد مَنْ يُبرَّر استخدام العنف تجاهه بصورة شاملة وممنهجة.
2. النية لتدمير القوة الحقيقية أو المُتخيلة لمجموعة العدو، بما في ذلك قوتها الاقتصادية والسياسية والثقافية والأيديولوجية، إضافة إلى قدرتها على مقاومة هذا التدمير.

Openkan.com

3. نشـر الجنـود، والتهديـد بالعنف لتدمير قوة مجتمـع العدو عن طريق القتل والإيذاء الجسدي بحق عدد كبير من أفراده، فضلًا عن الإكراه الاقتصادي والسياسي والإيديولوجي[16].
4. تنازع جوهري على الوجود؛ تشنه المجموعة المهاجِمة ضد القوة المرتبطة بالإبادة الجماعية، ويشكل هذا النزاع جانبًا من نزاعٍ أكبر يتحالف فيه طرف ثالث مع الأول ضد الأخير، بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

يتيـح لنـا وصـف الإبادة الجماعيـة بهذه الطريقـة فهمها علـى أنها عملية تدميرية، ويُخلّصنا من مأزق تعريفها على أنها مقتصرة على التدمير الجسدي. تشـتمل الحرب على تحديد العدو، ووضع الهدف من التدمير، وتطوير وسـائله، وهذا شأن الإبادة الجماعية. تشتمل الحرب على تطوير إستراتيجيات، وعمليات مختلفـة مـن التجهيـز والتنظيم، والمعـدات، ونشـر الجنود، وتشـتمل على قوى سياسـية واقتصاديـة وإيديولوجية وقوة عسـكرية، وهذه هـي الإبادة الجماعية. يعـد التدميـر الجسـدي المظهر الأقصى للحـرب، وهو الأمر الـذي ينطبق على الإبـادة الجماعيـة. يعد القتل الوسـيلة الرئيسـة فـي الحرب، لكنه ليـس الغاية، وكذلك الأمر في الإبادة الجماعية. تشـتمل الحرب والإبادة الجماعية على أكثر من القتل الجماعي الذي يسبب التدمير، ويمكن للإبادة الجماعية أن تقع حين لا يكون القتل واسع النطاق، تمامًا في حال الحرب التي يمكن أن تقع دون ارتكاب القتل على نطاق واسع، وعلى غرار الحرب لا تُعد الإبادة الجماعية عمليةً أحادية الجانب، وإنما هي نزاع بين طرفين أو أكثر، رغم أن العنف في الإبادة الجماعية أحـادي الجانب، ويبقـى صراعًا ينطوي على مقاومة غيـر عنيفة يبديها التجمع السكاني المستهدَف، مع معارضة عنيفة تصدر عن طرف ثالث.

تعد سمة الإبادة الجماعية عاملًا أساسيًّا في الظاهرة، ويتعيَّن دمجه في تعاريفنا، فالإبادة الجماعية هي نزاع غير متناظر نوعًا، ويمكن أن يصبح متناسقًا أكثر عندما يُصبح الطرف الثالث المسلح منخرطًا تمامًا فيها.

الصلة بالحرب (المنحطة)

رغم أن الإبادة الجماعية لا تمثل ظاهرة حديثة على وجه الحصر، فقد رُبِط تطورها الحديث بصورة وثيقة بالأشكال الحديثة من الحرب التي أدعوها بالمنحطة. لا يشكل هذا المصطلح بحد ذاته صنفًا أخلاقيًّا، وإنما مفهومًا مثاليًّا نموذجيًّا يؤكد تميز نوع الحرب الذي يصبح فيه استهداف تجمعات سكانية مدنية إستراتيجيًّا ومنظَّمًا. تشتمل الحرب بصورة عامة على إيذاءٍ غير متعمَّدٍ للمدنيين يدعى بعبارة تلطيفية الضرر الجانبي، وفظاعات متعمَّدة، لكن غير إستراتيجية، تمارس فيها الجيوش وعناصرها عنفًا ضد المدنيين. تحوِّل النزعة الجديدة نحو العنف المُمَارس ضد المدنيين -تلبيةً لرغبة قادة سياسيين وعسكريين مدفوعين بأسباب إستراتيجية وتكتيكية ملحة- الحرب إلى شيء مغاير لما صوّرته من الناحية التقليدية، وفي هذه الحالة لم يعُد بالإمكان النظر إلى العنف المُمَارس ضد المدنيين على أنه أمر عَرَضي أو ثانوي، بل أصبح جزءًا أساسيًّا من تداعيات الحرب، عُرِّفت ثلاثة أمور منطقية رئيسة لما أدعوها بالحرب القذرة ضمن الدراسات المكتوبة؛ أولًا: في حالة العنف الكامل في الحرب، «عندما يصبح حشد التجمعات السكانية ومشاركتها على نطاق أوسع، يصبح استهداف التجمعات السكانية منظمًا أكثر»[17]، يُنظَر إلى المدنيين العاملين في مجال الذخيرة من الناحية الاقتصادية على أنهم مصدر تذخير الآلات العسكرية، ويُنظَر إلى المدنيين سياسيًّا

بوصفهم داعمين مهاجِمين من شأنهم إضعاف العدو المسلَّح، و من الناحية التقنية تمُدُّ الأسلحة الحديثة الدولَ والمسلَّحين بكثير من الوسائل ابتداءً بالمدافع الرشاشة والقصف الجوي وصولًا إلى الهجمات الكيميائية والنشر الحيوي؛ لتدمير التجمعات السكانية المدنية. ثانيًا: في حالة الحرب الأهلية تستلزم المقتضيات الإستراتيجية للسيطرة على الأرض في المناطق المُتَنَازَع عليها؛ مساهمة التجمع السكاني المدني الذي يحوِّل المدنيين إلى أهداف، لكن هذه النزعة تُضخم؛ لأن «المنافسات والعداءات المحلية ضمن التجمع السكاني المدني تتفاعل مع الأولويات الإستراتيجية للفاعلين المسلحين»[18]. ثالثًا: في حالة العنف الإرهابي «يدفع الضعف الإستراتيجي لدى بعض الفاعلين المسلحين إلى تبني إستراتيجيات قائمة على مهاجمة المدنيين بصورة منظمة، ومرتبطة بأعدائهم المسلحين»[19]، ومما لا شك فيه أن تلك المفاهيم الثلاثة تشكل أنواعًا فرعية نموذجية، ويمكن فهم جزء كبير من الحرب الحديثة بأشكالها الرئيسة كافة بوصفها حربًا قذرة، وذلك بسبب نزعة داخلية لاستهداف التجمعات السكانية المدنية بصورة منظمة، وتبقى مع ذلك حربًا؛ لأن «تركيزها الأساسي يبقى منصبًّا على النزاع بين منظمات القوة المسلحة، بيدَ أن استهداف المدنيين يصبح أمرًا مُكملًا وليس عرَضيًّا لمقتضياتها»[20].

يبقى الفرق الجوهري بين الحرب القذرة والإبادة الجماعية هو طبيعة العدو وجوهره، متمثلًا بالقوة المسلحة المنظمة المعادية، إذ يُستَهدَف التجمع السكاني المدني الذي يُمثِّل عدوًّا بصفته وسيلة لهزم العدو المسلح، ورغم أن المجازر الجماعية المرتكَبة بحق المدنيين تمثل عملًا آثمًا وغير شرعي؛ فمن الممكن فهمها جزئيًّا تحت مسمى الحرب، كان المدنيون في مدينتي دريسدن أو هيروشيما بالنسبة إلى بريطانيا والولايات المتحدة على التوالي جزءًا من

العـدو، ولـم تحمل أي مجموعـة مدنية صفة العـدو المختلف عـن الدولة العدو، حتـى لو كانت الخصائص العنصرية والقائمة على رُهاب الأجانب لدى الألمان واليابانييـن قد أسـهمت فـي تبرير الخيارات الإسـتراتيجية، وفي سـياق مماثل كان المواطنـون الأمريكيـون فـي الطرف الآخر من الطيف العسـكري بالنسـبة إلـى القاعـدة جزءًا من العـدو المتمثل بدولة الولايات المتحـدة، إذ قُتِل ضحايا الحادي عشر من سبتمبر أيلول بصفة ذلك وسيلة لمهاجمة تلك الدولة، ولا يُعد هذا الفرق الضئيل ثابتًا إلى حد بعيد، فعندما يُنمِّي فاعل مسلح أفكارًا عنصريةً وقائمـةً على رهـاب الأجانب حـول المدنييـن المؤيدين لعدوه العسـكري، يمكن لحربه القذرة أن تتحول إلى إبادة جماعية. فحرب الولايات المتحدة في فيتنام تحوَّلت إلى مجزرة ماي لاي My Lai عام 1968م، يمكن أن يشـن مسـلح حملات تشـتمل علـى حرب قذرة وإبـادة جماعية، فقد شـنَّت القاعدة فـي العراق حملة مدبَّرة لتدمير الوجود الشيعي في أجزاء من الدولة، إضافةً إلى محاربة الولايات المتحـدة المحتلـة للبـلاد، ولا يختلف منحـى الحرب القذرة عـن منحى الإبادة الجماعية اختلافًا جذريًّا، إذ يمكن لكلا الظاهرتين أن تتداخلا بسهولة، وهما على عكـس الحرب غير القذرة تشـتملان علـى الأذى المتَعَمَّد للمدنيين، فتكون فظاعتهمـا متشـابهة على صُعد مختلفـة، فالحرب القذرة هي حرب تشـاطرها الإبادة الجماعية العديد من سماتها.

مـن الأهميـة بمـكان أن نصنِّـف الإبـادة الجماعيـة مـن خـلال إيجادهـا للتجمعـات السـكانية المدنيـة غيـر المسـلحة، بوصفهـا أهدافًا للعنـف المدمر الناجـم عن صراع مع أعداء مسـلحين، وهو الأمر الـذي يتضمن تطبيقًا خاصًّا للمفاهيـم العسـكرية التـي تعـرِّف الحرب القـذرة عمومًـا، تصـوّر إيزابيل هال Isabel Hull «إبـادة العـدو بوصفهـا نزعـة عامـة لـدى الفكر العسـكري الألماني

أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين»[21]، بيد أن جيمس ريد James Reid «يشير إلى أن نظام الشباب التركي فيما يخص سحق الأرمن طبَّق هذا المفهوم عن العدو وعلى مجموعة مدنية»[22]، تتمثل الهمجية الأساسية لأفكار من هذا القبيل، والتي تظهر بصورة جلية لدى ستالين في فكرته حول تصفية الكولاك في اتساع الفكر العسكري المشوَّه حول الحرب القذرة؛ كي تُعرِّف عدوًّا ليس عدوًّا ولا يمكن أن يكون عدوًّا بالمعنى العسكري التقليدي.

لا تتمثل الصدمة حول الإبادة الجماعية بأجساد المدنيين المكوَّمة فوق بعضها، وهو ما نراه في معظم وقائع الحرب الحديثة، وإنما في توجيه منطق الحرب ووسائله ضد التجمعات السكانية المدنية بصورة مباشرة؛ لتصبح أعداء. إن الإبادة الجماعية حرب تُشن ضد المجموعات المدنية، تستخدم القتل والعنف والإكراه بهدف سحق الشبكات الاجتماعية والتقاليد وأساليب الحياة، تشن القوى المسلحة هذه الحملات متعمَّدةً ضد المجموعات المدنية؛ لتدمير نوعهم المختلف من القوة، ويعد التميز في الإبادة الجماعية أمرًا مدهشًا رغم أن المذبحة لها تاريخ واسع في الحرب، ويُعزى هذا إلى القذارة التي تسببها الحرب الحديثة، وما زال بوسعنا إدراك منطقيتها الجوهرية القائمة على وجود قوة مسلحة أمام قوة مسلحة، فالحرب عند كلوزفيتس: «لا تنطوي على أي شيء باستثناء تدمير متبادل»[23]، وينطبق هذا على الحرب القذرة، حتى وإن كانت تلك التبادلية تمتد لتشمل تجمعات سكانية خاصة، وتشتمل الإبادة الجماعية على تدميرٍ أحادي الجانب؛ لأن النزاع فيها غير متكافئ بين المسلح وغير المسلح، ويعد استهداف حملةٍ مسلحةٍ لمدنيين بهذه الطريقة خطوة مهمة تتجاوز كل ما فهمناه، وتجعل ما فهمناه بما يتعلق بالحرب القذرة غير صحيح، وحالما تُستهدَف المجموعات تتحول الحملة إلى حرب؛ لأنها تصوِّر التمييز

العنصري بين المنتمين وغير المنتمين للمجموعة على أساس الخطوات التي تهدف إلى إنهاء القوة التدميرية، الأمر الذي يشبه الحرب، مع «أنه قد يكون غير منطقي عندما توصف المجموعات بالعدو الذي يجب تدميره»[24]، تُعد المعتقدات المفتقرة إلى العقلانية صبغة عامة للعمل الاجتماعي، في حين أن الحرب تقدِّم المادة الغنية لما يرتبط بدراسات تلك المعتقدات؛ لتأتي الإبادة الجماعية وتزيل الآثار الأخيرة المتعلقة بالمنطقية والشرعية اللتين تتصلان بالحرب الأكثر تقليدية.

الطبيعة الهَجينة للإبادة الجماعية والحرب

بيّنتُ الإبادة الجماعية لتأكيد أننا بحاجة إلى إعادة توحيد هذا الصنف مع الحرب، فالإبادة الجماعية ترتبط بالحروب التقليدية من الناحية التجريبية ولاسيما القذرة منها، إذ يُمكن لها أن تُدرك بوصفها من ناحية نموذجية ظاهرة هجينة مقارنَةً بأنواع أخرى من الحروب. وكما يُظهر الجدول رقم 8.2 فقد وقعت أكثر الأحداث الرئيسة المُعتَرف بها عمومًا التي وقعت في القرن الأخير ضمن سياق أنواع أخرى من الحرب، وهي: الحرب بين الدول والحرب الأهلية، ورغم أن الجدول لا يُظهر العديد من الأحداث الأقل ارتباطًا بالعنف القائم على الإبادة الجماعية، فإن الصلة تنطبق أيضًا على معظم تلك الأحداث[25]، إلا أن الإبادة الجماعية قد تطورت في بعض القضايا الرئيسة كتلك المتصلة بتصفية الكولاك من كونها نزاعًا اجتماعيًّا سياسيًّا يدور خارج سياق الحرب التقليدية المباشر، كما نتج بعض العنف الحديث القائم على الإبادة الجماعية كما هي الحال ضمن سباق الانتخابات في البلدان الديموقراطية، من الصراع السياسي الذي لم يصبح عسكريًّا بالمعنى المصطلح عليه للكلمة.

الجدول 8.2 الطبيعة الهجينة للحرب والإبادة الجماعية: أحداث رئيسة مُختارة

الحدث/ المدة	مركز المعتدين	المعتدون المباشرون الأساسيون	الحرب الأساسية (تاريخ/ تهديد الحرب)	الأعداء المسلحون المنظمون (أو ما ينظر إليه على أنه عدو)	المجموعات الاجتماعية العدوة
الإبادة الجماعية الأرمنية 1915م	الدولة العثمانية	الجيش والشرطة والقوى شبه العسكرية	الحرب العالمية الأولى	روسيا وبريطانيا وفرنسا	الأرمن
تصفية ستالين للكولاك بين 1929_ 1932م	**الدولة السوفيتية**	**الجيش والشرطة والحزب**	**الحرب الأهلية السابقة، التهديد الإمبريالي**	**الإمبرياليون الغربيون الثورة المضادة**	**الفلاحون والأوكرانيون**
السيطرة على مدينة نانكينغ (إلخ) عام 1937م	الدولة اليابانية الإمبريالية	الجيش	احتلال الصين	الحكومة الصينية والشيوعيون	الصينيون
الإبادة الجماعية النازية بين 1939_ 1945م	الدولة الألمانية النازية	الجيش والشرطة وفرقة الحماية وحكومات المستعمرات	الحرب العالمية الثانية	بريطانيا والاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية	البولنديون واليهود والسجناء السوفيتيون والشيوعيون والغجر إلخ

obeikan.com

نفي ستالين للقوميات بين 1942–1941م	الدولة السوفيتية	الجيش والشرطة	الحرب العالمية الثانية	ألمانيا النازية	الألمان على ضفة نهر الفولغا والشيشان، إلخ
مجاعة القفزة الكبرى نحو الأمام بين 1961–1959م	الدولة الصينية	الجيش والشرطة والحزب	**الصراع مع الولايات المتحدة الأمريكية والانشقاق الصيني–السوفييتي**	**الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي**	الفلاحون والتبتيون
مجازر الإندونيسيين الشيوعيين 1965م	الجيش الإندونيسي والفاعلين من خارج الدولة	الجيش والشرطة وميليشيات شعبية	صراعات مع الملاويين [وهم اليوم جزء من ماليزيا]	الحزب الشيوعي الإندونيسي	الشيوعيون والصينيون
احتلال تيمور الشرقية بين 1977– 1999م	الدولة الإندونيسية	الجيش والشرطة	الاحتلال ومكافحة التمرد	مقاومة سكان تيمور الشرقية	سكان تيمور الشرقية
الإبادة الجماعية الكمبودية بين 1977– 1979م	حزب الخمير الحمر الحاكم	الحزب والجيش	الحروب ضد الولايات المتحدة الأمريكية وفيتنام	الولايات المتحدة الأمريكية وفيتنام	المدنيون المثقفون والفلاحون والفيتناميون والأقليات

obeikan.com

التطهير العرقي الصربي بين 1991ـ 1999م	الدولة الصربية- اليوغسلافية + الصرب المشردون في البوسنة وكرواتيا	أحزاب وجيوش وشرطة وقوى شبه عسكرية	مرحلة ما بعد الحرب اليوغسلافية	جيش تحرير سلوفينيا وكرواتيا والبوسنة وكوسوفو والناتو	البوسنيون المتمدنون والكرواتيون والمسلمون والألبان وجمع من البوسنيين المتمدنين
الإبادة الجماعية الرواندية عام 1994م	الدولة الرواندية (الحزب الحاكم)	الجيش والشرطة والميليشيا والعصابات المسلحة	الحرب الأهلية في رواندا	الجبهة الوطنية الرواندية (RPF)	التوتسيون وأحزاب معارضة
الإبادة الجماعية في دارفور بين 2002ـ 2004م	الدولة السودانية + الجنجويد [قوات الدعم السريع]	قوات مسلحة وميليشيا	حرب مكافحة التمرد	حركة العدالة والمساواة	الفور والمساليت والزغاوة [قبائل في دارفور]

ملاحظات: القضايا المكتوبة بالخط **الغامق** في عمود الحرب الأساسية هي تلك التي لم تُرتَكب فيها إبادات جماعية في سياق مباشر للحرب، ولكن عندما هيأت حروب أو تهديدات حرب سابقة عوامل مهمة للسياق، أوردتها بالخط **الغامق** في عمود الأعداء المسلحين المنظمين، وتلك التي عُرِّف فيها الأعداء بصورة إيديولوجية، ولكن عندما لم تكن الحرب واقعة بالفعل.

obeikan.com

ترتبط الإبادة الجماعية بعلاقة وثيقة بالظاهرة الأكبر من الحرب، بيد أن العلاقات الخاصة بين الإبادة الجماعية، والأشكال الأخرى من النزاع المسلح تختلف، وفي تحليلنا لأي صراع نحن بحاجة إلى التمييز بين الإبادة الجماعية وأشكال العنف الأخرى الواقعة، ومن ثمّ نظهر المشترك بينها. ليست الفكرة المتمحورة حول كون النزاعات الفردية تتلاقى مع أشكال مختلفة من العنف بالجديدة في سياق دراسة الحرب، فعندما يطرح ستاثيس كاليفاز Stathis Kalyvas فكرة «العنف القائم في الحرب الأهلية، فإنه يفصل بصورة تحليلية بين هذا النوع الخاص من العنف، وبين الحرب الأهلية عمومًا»[26]، الذي يرتبط بها بأنواع أخرى، وبناءً عليه يمكن لكل من الاستهداف العسكري – العسكري التقليدي، وللعنف القائم في الحرب الأهلية، وللإبادة الجماعية أن تتحد كلها في صراع محدد، وسيكون واضحًا أن التمييز بين أنواع العنف ضمن النزاع الواحد ليس أمرًا مُباشرًا على الدوام، فالمذبحة التي تُرتَكب بحق قرية بأكملها للمعاقبة على تخابر غير مؤكد، أو التعاون مع عدو مسلح تحدث عندما يرى الجناة في التجمع السكاني عدوًّا، فيمتزج العقاب بالإبادة الجماعية.

الصعوبات التي تتناول التمييز بين أنواع العنف تؤثر أيضًا في التمثيل الكلي للحملات والنزاعات، فيمكن أن ندعو النزاع حربًا أهلية إذا بدا أن عوامل العنف القائم في الحرب الأهلية والتقليدية هي السائدة، أو ندعوه إبادة جماعية إذا كان تدمير المجموعات المدنية هو الغالب، ولكن إذا وُجِد الاثنان معًا يكون لدينا نزاع هجين. تختلف طبيعة هجنة الإبادة الجماعية والحرب وفقًا للدور الخاص الذي تلعبه الإبادة الجماعية في النزاع الأوسع، فـ «يميز الثالوث

التقليدي لكلوزفيتس بين البعد السياسي للحرب المتصل بالحاكم أو الحكومة، والتوجه الإستراتيجي للجنرالات وعنفه الأولي المتعلق بالجنود العاديين أو الناس»[27]، ويميز كاليفاز بين ثلاث مراحل للحرب؛ كبرى ومتوسطة وصغرى تتوافق مع هذا الإطار، فهو يرى في العنف القائم في الحرب الأهلية أنه ناتج إلى حد كبير عن ردة الفعل بين التجمع السكاني، والجيوش في المرحلة الصغرى من الحرب، إلا أنه يمكن للإبادة الجماعية أن تؤثر في المراحل الثلاث كافة، فيمكن لها أن تكون جزءًا من التبرير السياسي للحرب، أو ردًّا إستراتيجيًّا جزئيًّا على التحدي لهزيمة العدو، أو ردًّا محليًّا على تجمع سكاني مُتصور على أنه عدو. ويمكن للتنوع المنبثق عن دمج الحرب مع الإبادة الجماعية أن ينتُجَ اختلافات بين الأنواع المُعترَف بها تقليديًّا من الحرب، كالحرب بين الولايات والحرب الأهلية، لكن من الناحية العملية تعد كثير من الحروب هجينة أيضًا، فيما يتناول الجمع بين الحرب القائمة بين الولايات والنزاعات الأهلية. ويشير كاليفاز إلى أنه «يمكن للعنف القائم في الحرب الأهلية أن يحدث في الحروب الدولية ولا سيما عندما تنتج عمليات الاحتلال أنماطًا من التمرد والتمرد المعاكس ترتبط بنوع الحرب الأهلية»[28]، ويمكن لعوامل الإبادة الجماعية أن تتشابه ضمن هذا التقسيم التصنيفي التقليدي.

تمثل الأهداف المرتبطة بالإبادة الجماعية في الكثير من الحروب مبرِّرًا منطقيًّا للطرف المبادر، إذ يمكن للأهداف أن تنحو منحى الحرب المرتبطة بالإبادة الجماعية كإستراتيجية سياسية، ومن الأمثلة عمليات اجتياح ألمانيا النازية لبولندا والاتحاد السوفييتي مدفوعة بأهداف السيطرة العنصرية، وحروب صربيا والقوميين الصرب في كرواتيا والبوسنة وكوسوفو مدفوعين

بهدف تحقيق تجانس إثني على الأرض، ويمكن لإستراتيجيات من هذا النوع أن تُفضي بنا إلى تجسيد النزاعات بأكملها بوصفها حروبًا تتصل بالإبادة الجماعية، حيث تدور الحرب غالبًا حول حملة من هذا القبيل، ومتصلة بالإبادة الجماعية، والمقاومة المسلحة ضدها، وينطبق الأمر ذاته عندما تتبع الأطراف إستراتيجيات مرتبطة بالإبادة الجماعية، ويمكن للتبادلية فيما يخص الحالة الأخيرة التي عرَّف كلوزفيتس الحرب بها أن تظهر كذلك في الإبادة الجماعية؛ في حال ارتكبت كل قوة مسلحة مدعيةً أنها تمثل مجموعة واحدة إبادة جماعية بحق المجموعة التي يدَّعي عدوها أنه يمثلها، وبذا يمكن لإبادة جماعية واحدة أن تستجلب إبادة جماعية أخرى بصورة قصاص مرتبط بالإبادة الجماعية، أو انتقام يعود إلى إبادة جماعية سابقة، الأمر الذي يدعوه رينيه ليمارشان بـ «الإبادة الجماعية المضادة»[29].

يمكن للسياسات المرتبطة بالإبادة الجماعية أن تتطور بوصفها استجابات سياسية لأحداث عسكرية، وليست استجابات للإبادة الجماعية بحد ذاتها، فقد كانت عمليات الترحيل التي قام بها أتباع ستالين للجنسيات الخائنة في الحرب العالمية الثانية مدفوعة بتهديد الغزو الألماني الذي أصبح حقيقة فيما بعد، وكانت تلك سياسات مرتبطة بالإبادة الجماعية المُمارسَة بحق أقليات كثيرة في الاتحاد السوفييتي من دون أن تقتصر على الألمان، ولم تكن استجابةً للإبادة الجماعية النازية بصورة رئيسة، وكانت الإبادة الجماعية التي ارتكبتها سلطة الهوتو في رواندا مدفوعة باجتياح الجبهة الوطنية الرواندية، وليس بسبب الفظاعات التي ارتكبتها الأخيرة بحق الهوتو، يتبنى الطرف الذي لم يبادر بشن الحرب سياسة ترتبط

بالإبادة الجماعية ضد مجموعة سكانية يعاملها على أنها عدو مرتبط بعدوها المسلح.

عندما تُشن حرب غير مدفوعة بأهداف سياسية مرتبطة بالإبادة الجماعية، يمكن للإبادة الجماعية أن تتطور في المرحلة الوسطى من الحرب، إذا ما دفعت العداوة المفترضة لشعب ما قوة مسلحة إلى عدِّ هذا الشعب عدوًّا يتعيّن تدميره، إلى جانب -وليس مجرد وسيلة- هزيمة العدو المسلح. الكثير من الحروب الاستعمارية والتحرر والانفصال تعبّر عن هذا النوع من الحراك، عندما تستهدف مجموعات سكانية بالترحيل ومعسكرات الاعتقال والمذابح والاغتصاب والإرهاب.

تتصل هذه النزعة المرتبطة بالإبادة الجماعية بمكافحة التمرد على نطاق واسع، الأمر الذي دفع ألكسندر دي وال Alexander de Waal لطرح مفهوم «الإبادة الجماعية المكافحة للتمرد»[30]، ودفع كريستيان جيرلاك ليرى في حرب مقاومة العصابات بوصفها مشتملة على نوع خاص من «العنف الجماعي»[31]، تُشكل دارفور مثالًا على هذا النوع من الإبادة الجماعية، إذ هيأت الصلة بمكافحة التمرد الأساس لإنكار الإبادة الجماعية، ليس من جانب الجناة وحسب، وإنما من جانب السلطات الدولية أيضًا (راجع الإطار رقم 8.1)، ويمكن للإبادة الجماعية أن تتطور في المرحلة الصغرى بسبب إبراز القادة العسكريين على نطاق محلي سياسةً عامةً من مكافحة التمرد متمثلةً بعمليات طرد أو مجازر مرتبطة بالإبادة الجماعية، أو بسبب اتباع الوحدات الفردية أو المجموعات المحلية سياسة أكثر تشددًا، كما حدث في مجزرة ماي لي.

الإطار رقم 8.1 الحرب المرتبطة بالإبادة الجماعية: قضية دارفور

بينما كنت أشرع بالبحث المتصل بهذا الكتاب، اندلعت أزمة في منطقة دارفور غرب السودان، وهي منطقة مساحتها ربع مليون متر مربع تشغلها ستة ملايين نسمة، وبعد أشهر من الفظاعات المتزايدة، أُعلن على نطاق واسع أن «الحكومة السودانية وميليشيات الجنجويد التي سلحتها الحكومة ودعمتها، والقائمة على أساس تجمع سكاني عربي شنت هجمات عديدة على التجمعات السكانية المدنية الإفريقية»[32]، وهي قبائل الفور والمساليت والزغاوة، وقد أشرفت القوات الحكومية وشاركت بارتكاب المجازر، وإعدام المدنيين من غير محاكمة، وإحراق البلدات والقرى، والإخلاء القسري لمساحات واسعة من الأرض سكنتها هذه المجموعات لمدة طويلة، وقتل النساء، وتدمير القرى ومخازن الطعام ومؤن أخرى أساسية للسكان المدنيين، مُقتادين مليوني شخص أغلبهم من المزارعين إلى معسكرات ومستعمرات في دارفور حيث عاشوا على الكفاف، ووقعوا رهينة لعمليات الامتهان المُمارَسة على يد الجنجويد، أو كلاجئين في دولة تشاد المجاورة، وكان هذا نتيجة للصراع الذي تطور عندما طالبت جماعتان متمردتان متمثلتان بجيش حركة تحرير السودان (SLA/M) (ج/ح.ت.س)، وحركة العدالة والمساواة (JEM) (ح.ع.م) حيث تبثق هاتان الجماعتان عن أعضاء من المجموعات المهاجمة، بوضع نهاية للتهميش الاقتصادي المزمن، وسَعَتا خلف تقاسم السلطة ضمن الدولة السودانية، وطالبتا الحكومة باتخاذ موقفٍ متمثلٍ بوضع حد لإساءات منافسيهم العرب الرعويون الذين دفع بهم الجفاف والتصحر إلى مزارع إفريقية، والذين كان لديهم تقليد بدوي متمثل بوجود ميليشيات مسلحة، «وقد استجابت الحكومة لهذا التهديد السياسي المسلح باستهداف التجمعات السكانية المدنية التي خرج المتمردون منها»[33]، يشير أفضل تقدير لزيادة معدل الوفيات إلى «ما يقارب 300.000 شخص يعود ما نسبته 80% منها إلى المرض»[34].

تصف معظم الحكومات والمنظمات غير الحكومية، ما كان يحدث بكارثة إنسانية ناتجة من حرب أهلية، ويمكن عدُّها في بعض الأحيان منطوية على تطهير عرقي، فبعد مرور عشر سنوات على قضية رواندا، ما زالت تلك الحكومات والمنظمات عازمة على عدم استخدام مصطلح الإبادة الجماعية؛ لما ينطوي عليه من مقتضيات تُلزم باتخاذ فعل؛ إلا أن جماعة جديدة وناشطة في البرلمان (لوبي) تتمركز في الولايات المتحدة أطلقت عليها الإبادة الجماعية.

عكست أول دراسة أكاديمية قام بها جيرارد برونييه Gerard Prunier هذا اللبس، فأطلق على قضية دارفور «الإبادة الجماعية الملتبسة»[35]، ويجادل: «إذا استخدمنا التعريف الصادر في ديسمبر/كانون الأول عام 1948م، فإن قضية دارفور إبادة جماعية، وإذا استخدمنا تعريفًا قائمًا على الطمس الكامل فهي ليست كذلك»[36]، عيَّنت الأمم المتحدة لجنة تحقيق دولية أنشأها مجلس الأمن، وأصدرت تقريرًا رسميًّا فحواه أن النزاع وصل إلى ما هو أبعد بكثير من حرب عادية نشبت بين دولة ومتمردين، إذ «تَمَثَّلَ أهمُّ عامل في النزاع بالهجمات على المدنيين»[37]، تابعت اللجنة التحديث الذي لحق بمحكمة رواندا؛ لفهم مجموعات الضحايا في الإبادة الجماعية، وتجادل بأن المجموعات القبلية غير العربية أو الإفريقية في دارفور ممن كانوا ضحيةً للهجمات، وأعمال القتل، خلقوا مجموعة محمية، وأقرَّت مسؤولية الدولة عن العنف، فقالت: «إن اللجنة على يقين بأن الغالبية العظمى من الهجمات التي شُنت على القرى بقيادة الميليشيات نُفِّذت بإذعان من مسؤولي الدولة»[38]، وفي الحقيقة يمكن القول «إن فداحة بعض الجرائم المُرتَكَبة ضد الإنسانية بنطاق واسع، والهجمات العشوائية ضد المدنيين، والترحيل القسري للمدنيين، تنطوي على أن هذه الجرائم تنتج من عملية تنظيم مركزية»[39]، وأقرَّ التقرير بناءً على ذلك بأنه: يمكن لبعض العوامل المنبثقة من الفظاعات والطبيعة المنظمة للهجمات، والقتل، والتهجير، والاغتصاب، والتصريحات

المحرَّضة عنصريًّا من جانب الجناة المُستهدِفين لأفراد في القبائل الإفريقية أن تحمل دلالة عن النية لارتكاب الإبادة الجماعية، ومع ذلك فقد توصَّل التقرير إلى الخلاصة الآتية:

«تُظهِر عوامل قوية أخرى النقص في النية المرتبطة بالإبادة الجماعية، مثل امتناع المعتدين عن إبادة التجمع السكاني الذي لم يهرب كله، ويكتفون بقتل الشباب انتقائيًّا، إذ لم تكن نية المهاجمين تدمير مجموعة إثنية بحد ذاتها، أو تدمير جزء من المجموعة، بل كانت النية قتل الشبان ممن عدُّوهم متمردين، وطرد التجمع السكاني بأكمله بالقوة؛ لإفراغ القرى، ومنع المتمردين من الاختباء بين التجمع السكاني المحلي، أو الحصول على الدعم منه»[40].

ثمة تشابه كبير بين استخدام كلمة النية غير الكاملة لتجنب التوصل إلى نتيجة متمثلة بالإبادة الجماعية، وبين الحكم الصادر عن محكمة العدل الدولية في قضية البوسنة (راجع الفصل السابع)، فالحكم لن يكون مقبولًا سياسيًّا، وللمفارقة، «تتمثل الحقيقة الفعلية في أن محكمة العدل الدولية عدَّت الإشارة إلى الإبادة الجماعية في قضية سربنيتسا المتمثلة بذبح رجال في سن الخدمة الإلزامية السبب وراء رفض استنتاج أن إبادة جماعية وقعت»[41]؛ لأن اللجنة على عكس محكمة العدل الدولية أكدت سياق الحرب الذي حصلت فيه الهجمات ضد المدنيين، و توصلت إلى:

أن سياسة الهجوم والقتل والتهجير القسري لأفراد بعض القبائل لا تؤكد وجود نية لإهلاك مجموعة كليًّا أو جزئيًّا، بناءً على أسس عرقية أو إثنية أو قومية أو دينية، وإنما تُظهِر أن الذين خططوا للهجمات على القرى ونظموها كانوا يتبعون غايتهم المتمثلة بإخراج الضحايا من منازلهم؛ لغايات مرتبطة بحرب مكافحة التمرد بصورة رئيسة».

كان هذا أمرًا صحيحًا، حتى لو كان ثمة نية مرتبطة بالإبادة الجماعية لدى بعض الأفراد، أو ارتُكِبت «إبادة بوصفها جريمة ضد الإنسانية[42].

والحكومة، وكان «يتم الإبلاغ عنها لوقوعها دون أي تبرير عسكري يتصل بأي نشاط خاص لقوات التمرد، وكان هذا يُعزز الفهم العام بين المراقبين حول أن التجمع السكاني المدني قد استُهدِف عمدًا، وعن سابق دراية»[43]، بيد أن موقفهم الاحتياطي تمثَّل في أن هذه كانت جرائم ضد قدَّمت اللجنة المسؤولة عن قضية دارفور بصورة تحليلية اعترافات كثيرة حول فظاعات الجنجويد الإنسانية، مُرتَكبة خلال حرب مكافحة التمرد، وبناء عليه تُجادل أكثر التقارير رسمية وموثوقية بفاعلية حول النزاع، بأنه لا يمكن أن يكون فعل إبادة جماعية؛ لأن الوقت كان زمن حرب مكافحة التمرد، وكأن هذه التصنيفات مثَّلت بدائل، وفي نهاية المطاف انبثق هذا الرأي عن اتجاه مثير للدهشة، فقد كان الباحث السوداني أليكس دي وال يجادل ذات مرة بأنه ما لا يقل عن ستة أحداث ضمن بدايات الحرب الأهلية السودانية ستُعد إبادة جماعية بناء على تعريف الأمم المتحدة، وقد صنَّف قضية دارفور من الأساس على أنها إبادة جماعية، وجادل بحلول عام 2007م للحصول على «تفسير أضيق لاتفاقية الإبادة الجماعية؛ لتُطبّق على خطط للإهلاك الإثني أو العرقي، الأمر الذي لا ينطبق على قضية دارفور»[44]، واستُخدِم اقتراح دي وال حين استنتج المدعي العام في محكمة الجنايات الدولية الذي أُحيل إليه تقرير اللجنة الدولية استنتاجات مختلفة، مُتهمًا الرئيس السوداني عمر البشير Omar al-Bashir بارتكاب إبادة جماعية، وقد رأى في ذلك تهديدًا لمفاوضات السلام بين الحكومة والمتمردين، كما انتقد المجموعة الفاعلة في البرلمان (اللوبي) المعارضة للإبادة الجماعية، والتي فشلت في استيعاب السياق المناهض للتمرد من العنف، ويبدو أن الإبادة الجماعية بالنسبة إلى وال أصبحت تشكل عائقًا في وجه الحل والفهم أيضًا.

لا تبعث هذه المواقف المتناقضة الرضا في النفس، واستمر الجدل حول قضية دارفور وكأنها يجب أن تكون حربًا أو إبادة جماعية، في الوقت الذي تعد فيه مثالًا جيدًا على هُجْنة الحرب والإبادة الجماعية، ولن يكون أمرًا ممكنًا الاعتراف بفشل

اللجنـة في تتبـع المنطق المرتبط بالإبادة الجماعية حول اسـتهداف المجموعات المدنيـة للتوصـل إلى نتيجتهـا، في حين أنه يمكـن للإبادة الجماعيـة والحرب أن تتميـزا بوصفهمـا نوعيـن نموذجيين، فمن الناحيـة العملية هما متحـدان بصورة مشـتركة، وهـذه هي الحال في دارفـور وغيرها من المناطق، حيـث يتوافق النزاع من النوع الهجين مع الحرب المرتبطة بالإبادة الجماعية.

مـن الأهميـة بمكان التشـديد على أنه عندما تتطور الإبـادة الجماعية في الحروب تنتج ظاهرة هجينة، بالإضافة إلى أنهما يشـتملان على أبعاد عسكرية فضـلًا عن تلك المرتبطة بالإبادة الجماعيـة، فقد حاربت القوات الصربية في البوسـنة بطريقة تقليدية ضد القوات البوسـنية والكرواتية، فضلًا عن مهاجمة المدنييـن مـن غير الصرب، ومما زاد تعقيد الأمور أن القوات الكرواتية قاومت الإبـادة الجماعيـة الصربية، وارتكبـت إبادة جماعية بحق المسـلمين، لذلك لا يمكـن إطـلاق وصـف الإبادة الجماعية علـى الحروب كلها، ولكـن يوجد عنصر إبـادة جماعيـة في غاية الأهميـة في بعض الأحيان، لا تهتم به الأطراف بسـبب النزاع العسكري الاعتيادي، ولا تكون الإبادة الجامعة على رأس أولوياتها، فعلى سـبيل المثال حرَّضَ الغزو النازي الألماني -الذي اتصـف بالإبادة الجماعية- لبولندا شنَّ حرب تقليدية على ألمانيا من قبلِ فرنسا وبريطانيا، فردَّت اليابان بشَّـن حـرب إبـادة جماعيـة علـى الصيـن، و لكنها مـدَّت حربهـا إلـى الولايات المتحـدة باعتـداء تقليدي، الأمـر الذي أدَّى إلى قيام الحـرب العالمية. لم تكن الحـرب العالميـة ككُل حرب إبـادة جماعية، أو حـول الإبـادة الجماعية بصورة رئيسـة؛ لأن الإبـادة الجماعيـة كانـت فقـط جـزءًا من أهـداف حـرب ألمانيا و اليابـان، و لـم تكن هدفًا للحرب لدى بريطانيا أو الولايات المتحدة، وكان إنهاء

الإبـادة الجماعيـة هدفًا ثانويًّا للغاية بالنسـبة إلى الحلفـاء الغربيين، إن وصف الحـرب العالميـة الثانية على أنها تدور حـول المحرقة تحريف خطير، فقد كان جـزء مـن تلك الحـرب العالمية حربًـا تقليديـةً، والجزء الآخر كان حـرب إبادة جماعية، غلب الأخيرُ في بعض المناطق -وسـط أوروبا وأوروبا الشـرقية وشرق آسيا- عنه في أخرى (أوروبا الغربية والشرق الأوسط وشمال إفريقيا).

فـي الحالة المُقيـدة التي لا تُربط فيهـا الإبادة الجماعيـة بالحرب، تكون الحـرب دائمًـا مرجحة من خلال المقاومة المسـلحة من قبل التجمع السـكاني المهاجـم، أو مـن خـلال التدخل العسـكري لطـرف ثالث إنسـاني، أو من خلال ربطهـا بحـروب الطـرف الثالـث، وترتبط الإبـادة الجماعيـة بالقوة العسـكرية بالمعنى الأعم؛ لأن المؤسسـات العسـكرية وشبه العسكرية تكون عادةً المعتدي الأساسـي والمباشـر حتـى فـي حـوادث وقـت السـلم، وحتـى إن كان مـن ضمن مرتكبـي الإبادة الجماعية أعضـاء من الهيئات الإداريـة الحكومية، والأحزاب، والشـرطة والمسـتوطنين والعصابات ومدنيين آخرين، وغالبًا ما تكون الأنظمة المُعسكرة -ليست بالضرورة عسكرية- أكثر عرضةً لارتكاب الإبادة الجماعية. أظهـر الاعتداء السـتاليني علـى الكولاك التأثيـر الذي أحدثته عسـكرة النظام خـلال المراحـل الأولـى مـن الحرب الأهليـة الروسـية، وكذلك أظهـرت الإبادة الجماعيـة الكمبوديـة آثـار العسـكرة المتطرفـة للخمير الحمر فـي الحروب مع الولايـات المتحـدة وفيتنـام، فالأنظمة التي تخشـى التهديدات العسـكرية أكثر اسـتعدادًا لأن تَعُدَّ الخصوم الداخليين أعداء بالمعنى العسـكري، وينطبق هذا علـى الحالـة السـوفيتية، إذ هاجم سـتالين الكـولاك عندما شـعر بالحاجة إلى التخلص من التجمعات الزراعية، وفرض التصنيع؛ ليُهيئ الاتحاد السـوفييتي للدفاع عن نفسه أمام ألمانيا المسلحة.

وبذلك يُمكن رؤية الإبادة الجماعية قريبة من الحرب، حتى في الحالات التي لا ترتبط فيها بنزاع مسلح موجود أو افتراضي، وينطبق ذلك أيضًا عندما تُنفذ الإبادة الجماعية على يد المستعمرين والشرطة والإداريين أكثر من تنفيذها على أيدي الجنود، ففي أستراليا «أسس المستعمرون سيطرتهم الكاملة بسرعة في مناطق عديدة؛ فقد حصل الإفناء الكامل للسكان الأصليين لتاسمانيا أوائل القرن التاسع عشر دون أي عنف مباشرٍ ملحوظ؛ لأنهم قد هُزموا بصورة شاملة»[45]، استمر خطف أطفال السكان الأصليين لعقود في القرن العشرين على يد أجهزة الدولة التي حظيت بالسيطرة الكاملة على المجتمع، ولذلك لم يكن العنف المباشر ضروريًّا، «فقد تمكن نظام التفرقة العنصرية في جنوب إفريقيا من القضاء على المجتمع الأسود في مناطق عديدة باستخدام عنف محدود فقط؛ لأنه امتلك بالأصل سيطرة شبه كاملة على السكان»[46]، تلك حالات امتلك فيها المعتدون احتكارًا منيعًا للعنف على أهدافهم؛ فرضه عنف سابق ناجح.

من المهم الإشارة إلى أن الإبادة الجماعية رغم أنها نوع ضمني شاذ من الحرب، إلا أنها ظاهرة ممزوجة/ ولكن ليس بحجم اختلاط الحرب والعمليات الحربية، فلا يزال العُرف المشروع عن الحرب التي تنشب بين دولتين ينعكس في الطريقة التي يحدث بها القتال، فالعديد من الحروب لا تحتوي على الإبادة الجماعية بصورة ملحوظة، وبعضها لا تتضمن إبادة جماعية على الإطلاق، ولكن بعض الحروب تنطوي على الإبادة الجماعية أكثر مما يُقرُّ به المنظرون العسكريون، وبشكل عام فإن المزج هو إحدى سِمات الحرب التقليدية، وبذلك تكون الإبادة الجماعية إحدى مخاطر الحرب الحديثة بكل أنواعها.

الخاصية المكانية للإبادة الجماعية

يـؤدي الربـط بين الإبـادة الجماعيـة والحرب إلى مسـألة البعـد المكاني للإبـادة الجماعية. تطـرح العديد من الكتابات أن الإبادة الجماعية هي ظاهرة محلية أساسًـا؛ بافتراض أنها تنطوي على عنف من فاعل مسـلح يُعتقدُ أنه دولة مـا تجاه مدنيين عُـزَّل، وهذا يعني أن الإبادة الجماعية هي ظاهرة دولية فقط؛ بسـبب الاسـتجابات للإبـادة الجماعية مـن قِبل دول ومؤسسـات دوليـة أخرى، ولكـن وعلـى افتراض أن الإبـادة الجماعية تتطور نموذجيًّا ضمـن الحرب، فإن المعايير المكانية للإبادة الجماعية تتنوع بتنوع أنماط الحرب التي نشأت منها، وفـي الواقـع فإن الإبـادة الجماعية هي ظاهـرة عن الحرب الدوليـة -الاحتلال النـازي لمعظـم أوروبا كما أكـد لِمكن- وعن الحرب الأهليـة، علاوة على ذلك، يتـم تدويـل العديد من الحروب الأهلية، وتصبح الروابط بين الدول -من خلال تدفق اللاجئين مثلًا- مهمة لأنماط الإبادة الجماعية -حالة البحيرات الكبرى وأزمـات العـراق وسـوريا منتصـف عـام 2010م- ما يعنـي «أنه لا ينبغـي تصوُّر الإبادة الجماعية بوصفها ظاهرة محلية، بل بوصفها شكلًا مركبًا دوليًّا-محليًّا؛ يتأثر بكل أنواع العلاقات بين الدول والدولية أيضًا»[47].

الخلاصة

استعرضتُ في هذا الفصل البنية النموذجية للنزاع في الإبادة الجماعية، فهي تشكل أصنافًا متباينة من الحرب التي ترتبط بقوة بالحرب الأكثر تقليدية؛ وخاصـةً في شـكلها الحديث المنحط، و ناقشـتُ أن الإبـادة الجماعية جزء من

ظواهـر ممزوجة مدموجة مع أشـكال أخرى من الحـرب، وأن الإبادة الجماعية ترتبط بالأنواع الأخرى كلها من التركيبة الاجتماعية، ولا بد أن ينتقل شرح كامل من بنية الإبادة الجماعية التي ناقشـتها في هذا الفصل إلى سـياقاتها البنيوية الأوسـع في الاقتصاد والثقافة والسياسـة والقوة العسـكرية التي سأناقشـها في الفصل التالي.

opeikan.com